الفصل الرابع

الأصول العربية لمصر

البدو هم العرب الرحل الذين أطلق عليهم هذه التسمية لأن البادية موطنهم، أو بمعنى أدق:"استبس شبه جزيرة العرب والشام والعراق".

أما الاسم العرقي للبدو فهو"أعراب"أو"عرب". ولقد اتخذ اسم"عرب"في مصر منذ الفتح الإسلامى حتى العصر الفاطمي، معنى"بدو"أو"عرب الصحراء"، في مقابل غيرهم من العجم والتركمان والترك... إلخ. وابتداء من العصر الأيوبي وخاصة في العصر المملوكي، وتحت تأثير العناصر التركية المتفوقة في مصر أصبحت هذه الكلمة"عربان"، وكانت تعني وقتئذ الرحل ذوي الأصل العربي، والذين كانوا يتواجدون على تخوم صحاري مصر بمحاذاة النيل، وكان هؤلاء العربان يمثلون كتلة ضخمة من السكان، بحيث كان من الصعب التمييز بينهم بمعيار الأنساب وانتمائهم سواء لليمنيين (القحطانيين) أو للقيسيين (العدنانيين) أو للبربر. وكان هذا هو السبب الذي دعا معظم مؤلفي العصر المملوكي العرب إلى تسميتهم برمتهم"العربان"ولم يميزوا بينهم إلا عن طريق انتمائهم إلى مكان ومحل إقامتهم؛ فرأينا في مؤلفاتهم ذكر"عربان الشرقية"أو"عربان منفلوط... إلخ.

ولقد عمل بعض البدو ممن مالوا إلى الاستقرار بفضل مياه النيل وما تجلبه من خير للبدوي، يتمثل في وفرة المراعى، على تكوين عدة أرباض بدوية لهم، حيث عاشوا تحت خيامهم المصنوعة من الوبر، وكانوا في هذه الحالة يعرفون باسم"عرب الخيش"، أو بين"أربعة جدران"، وكانوا عندئذ يعرفون باسم"عرب الحيط"، وتعتبر عملية استقرار أو تحضر Sedentraization البدو هي العامل الرئيسي لاندماجهم في الشعب المصري، ولذلك فإن هذه الدراسة لا تنصب إلا على البدو، أي حتى أن يصلوا إلى نقطة الاستقرار والتحضر، وبمعنى آخر طالما

أنهـــــم ما زالوا يشعرون بأنهم بدو وبأنهم ما زالـوا متخلقـين بخلـق البـدو وعاداتهم.

إن بدو مصر لا يمثلون في الواقع سوى جزء من مجمـوع بـدو العـالم الإسلامى بأجمعه، ولكن معرفتهم تشكل- لا محالة – بعداً جديداً في تـاريخ هـذه المنطقة، حتى إذا لم يتعدَّ هذا سوى الإمكانيات الهائلة التي ستتاح لنا عند معرفـة أسماء قبائلهم ومختلف بطونهم، وما سيعود منه ذلك بالفائدة على الدراسة الخاصة بأصول أسماء المواقع الجغرافية (الطوبونيما) Toponymy في مـصر، وتلـك الخاصة بدراسة أصول اللقب Patronymic.

ومع هذا، وحتى الآن، فإن بدو مصر لم يوضـعوا موضـع الدراسـة ، لا بطريقة متعمقة ولا في مجموعهم، في الوقت الذي حظيت فيـة جماعـات البـدو الأخري في العالم الإسلامي بدراسات متعددة، وربما يتساءل المرء لماذا ؟ ربمـا كان هذا راجعا إلى أنه موضوع على جانب كبير من التعقيد، بالإضافة إلي صعوبة وتشتت معلوماته وتنأثرها في خضم هذا البحر الكبير من كتـب الأدب والتـاريخ وغيرها من المؤلفات التي قد تعالج موضوعات بعيدة كل البعد عن البدو أنفـسهم، وربما أرجعنا ذلك إلى طبيعة وجودهم ذاته، وما يتصف بـه مـن صـعوبة فـي الإمساك به أو إدراكه، ربما كان هذا أو بعضه هو الذي صد العلماء والباحثين عن الخوض في هذا الموضوع، ومع هذا فإن دور البدو دور لا يستهان به في الحيـاة المصرية، ولا بد للمؤرخ الحديث من أن يأخذهم في الاعتبار لكي يستطيع إلقـاء الضوء على النواحي المظلمة، ولسد النقص في معلوماتنا عن تاريخ مصر في قلب العصور الوسطى، إن مركز الاهتمام الرئيسي لدراسة المجال الجغرافي للبدو فـي مصر هو توزيعهم، ولسنا في حاجة إلي أن نوضح مع ذلك أن حالة الارتحال فـي حد ذاتها تستلزم غياب حدود ثابتة أو حتى معينة عند القيام بهذا التوزيع، فقد بـدأ كل شيء من الفسطاط ، ثم في شبة بقع متتالية من الزيت، أنشأ البدو لأنفسهم على حدود الصحراء وعلى ضفتي النيل في الوجهين البحري والقبلي، عـدة تكـتلات

بدوية كاملة، وهنا أصبح تمركز البدو يشكل مساحات واسعة في الشرقية والبحيرة، وعلى الساحل الشمالي الرملي، وعلى الشريط الشمالي الغربي المسمى"الجفار"وفي الصحراء الشرقية، وفي واحات الصحراء الليبية وحتي برقة، وكان مـن نتيجـة توسع البدو وانتشارهم على رقعة الحدود المصرية أن نلجأ إلي التقسيمات الإدارية للبلاد حتى نتمكن من حصرها أولا لكي نتفهم كذلك بعض الوقائع التاريخية التـي شارك البدو فيها، ومن الناحية الزمنية فإن دراستنا عن البدو في مصر تبـدأ مـن وقت فتح هذا البلد على يد الجيش العربي بقيادة عمرو بن العاص ، وهـذا العهـد الجديد الذي بدأ في مصر يتزامن مع تدفق البدو عليها، وهو تدفق لن تضعف حدته أو تخف طوال عصر الولاة (٢٠)هـ إلى (٢٥٤)هـ حيث قـام معظـم الـولاة باستدعاء أهلهم وعشيرتهم ليكونوا لهم عزوة، وكانت القبائل تلبي هذه النداءات بدقة طبقاً للعادات القبلية، وتصل إلى الأراضي المصرية، ولم يتوان بدو مصر في اتخاذ المواقف حيال تغير الخلافة والخلفاء، أمويين كانوا أم عباسيين، وما يستتبع ذلك من تبديل أو عزل للولاة في مصر، أضف إلى ذلك المـشاحنات مـع الـسلطة التـي أوجدتها الصعوبات الناجمة عن جباية الضرائب، وكذلك الخلافات الداخلية المتعددة التي حدثت بين تلك القبائل مع بعضها البعض، ولقد كان الموقف الحيادي والمسالم الذي اتخذه الطولونيون (٢٥٤ ـ٢٩٢ هـ)، والإخشيديون (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) حيال البدو، قد شجع على زيادة عددهم في مصر، وكانت فترة حكـم الفـاطميين طوال قرنين من الزمان (٣٦٢ ـ ٥٦٨ هـ) هي أغنى فترة في تاريخ البدو فـي مصر، وكان دخول القبائل وخروجها، فالمشاحنات والمؤشرات التي حدثت، تظهر بجلاء الدور الذي قام به البدو في مصر في ذلك الوقت وتكـشف عـن أهميـتهم ومكانتهم، أما عن الأيوبيين (٥٦٥ ـ ٦٤٨ هـ) فقد أولـوا عنـايتهم وتفـضيلهم للأجناس الأخرى كالأكراد والتركمان على وجه الخصوص، وهو ما سيؤثر فـي إضعاف مكانة البدو إلي حد ما، كما أن عداء البدو الظاهر حيال السلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) سيجر عليهم الوبال وسينجم عنه تدهور واضح لمكانتهم، إلى

درجة انهيارهم واضمحلالهم، كما سيدفع الباقين منهم إلي أن يلوذوا وأن ينعزلـوا في أقصى صحاري البلاد، ولما كانت النواحي الاجتماعية والاقتصادية لبدو مصر من أهم الموضوعات التي ستقربنا من أصولنا العربيـة، فقـد درسـنا أحـوالهم الاجتماعية: تنظيم مجتمعهم وخيامهم ومعيشتهم وزواجهم وأفراحهم، والمكاتبـات التي ترسل إليهم من السلطان....إلخ، ثم تعرضنا لاقتصادهم البدوي الذي لم يقتصر كما سنري على الرعي وتربية الأغنام، بل تعداه إلى الزراعة والتعدين، وتوريـد الخيول العربية الأصيلة للسلطان، ولأغراض البريد، وخفارتهم للطرق[1]....إلـخ، مما كان سببا في غناهم وثروتهم، وإقطاعهم الإقطاعات الواسعة من قبل السلاطين كل ذلك أدى إلى انتقال اقتصادهم البدوي المغلق إلى اقتصاد شبه مفتوح على عامة المصريين،

وقد آثرنا هذه النواحي الاقتصادية ببحث يجمع بـين أطرافهـا ويـستخلص نتائجها المتكاملة، تلك هي الموضوعات، وهذا هو الإطار الجغرافـي والتـاريخي لدراسة الأصول العربية في مصر في العصور الوسطى، وسنحاول في أثناء هـذا البحث أن نتعمق في كنهها وفى استخلاص نتائجها.

* * * * * * * * * * * *

[1] يعني: حمايتهم وحراستهم لها.